مجلة علم النفس

مجلد ٨ | أكتوبر ١٩٥٢ — يناير ١٩٥٣ | عدد ٢

علم النفس فى خدمة الإنتاج القومى

بقلم

الدكتور يوسف مراد

حاول العلماء تعريف الحياة كما حاولوا تعريف الحركة فلم يفلحوا لا لعجز اللغة عن التعبير فحسب بل لأن التعريف يجب أن يرتكز فى بدء حركته على حقائق أولية يشعر بها العقل قبل أن يتعقلها ومن هذه الحقائق الحياة والحركة والتطور وهى حقائق أولية لأنها لا ترجع إلى شىء سواها بل كل ما هو فى الوجود يرجع إليها . غير أن هناك مراتب فى الحركة فحركة الكائنات الحية تمتاز بخصائص جديدة لا توجد فى حركة الأجسام غير الحية وإن كان فى قدرة التأمل الفلسفى أن يكشف عن المعالم التخطيطية لحركة الأحياء مرتسمة بطريقة رمزية فى حركة غير الأحياء ، ثم هناك الحركة الصادرة عن قوة العقل ومن أهم مميزاتها أنها موجهة نحو هدف يختاره الشخص بعد تفكير منزه عن الأهواء يعتمد فى وثبته وحركته على إرادة حرة وشعور حى . وفى قدرة التفكير الفلسفى أن يكشف عن المعالم التخطيطية لنشاط العقل وحركة التفكير مرتسمة بطريقة رمزية فى نشاط الكائنات الحية .

وإذا أردنا أن نتمثل الحركة الحية فى أشمل صورة فى صورها فإنها تبدو لنا أنها بمثابة كفاح مستمر يقوم بوظيفتين أساسيتين : المقاومة أولا ثم البناء والخلق ثانياً ؛ مقاومة العوامل التى تهدد التوازن الديناميكى الذى يمتاز به الكائن الحى أى مقاومة عوامل الفساد والانحلال والموت ؛ ثم السعى نحو البناء بخلق صور جديدة من النشاط .

والحياة النفسية والحياة الاجتماعية فى صورها السوية تمتاز كل منها بهذا اللون من الكفاح ، مقاومة ثم بناء وخلق وذلك خلال مراحل تطورية خاصة مؤدية إلى التكامل بعد اجتياز أزمات تخرج منها الشخصية كما تخرج منها الأنظمة الاجتماعية أكثر نضجاً وأوفر قدرة على العمل المنظم المتحد فى هدفه وبالتالى على العمل المنتج الذى يزيد الشخصية كما يزيد المجتمع ثراء وقوة وسعادة .

وتجتاز الأمة المصرية الآن مرحلة حاسمة من مراحل تطورها وتقدمها ؛ فهى تعانى أزمة شبيهة بالأزمات النفسية التى تخرج منها الشخصية أكثر اتزاناً وتكاملا وذلك بفضل اصطدامها بالواقع وما يترتب عليه من زيادة تركيز الشعور على نفسه والكشف عما تتضمنه النفس من قدرات جديدة وخاصة من قدرة على التفكير وعلى القيام بأفعال إرادية حرة ، وقد بين علماء التحليل النفسى كيف ترتقى الشخصية عندما يخضع الفرد مبدأ اللذة لمبدأ الواقع وعندما يأخذ الأنا الأعلى يتكون مع توفير جميع العوامل التى تدعم قوة الذات الشاعرة وتجعلها قادرة على أن توفق بين الحوافز الاندفاعية اللاشعورية وبين الضوابط الصادرة من الأنا الأعلى .

فالأمة المصرية بفضل الحركة الحكيمة التى قام بها جيشها ، تمر بأزمة نفسية واجتماعية ستسمح لها بعد اجتيازها بنجاح بأن تدرك بوضوح كل ما يتضمنه أفرادها من قدرات وإمكانيات على البناء والخلق والعمل المثمر وبأن تعيد تنظيم سلم القيم بحيث تخضع القيم المادية والاقتصادية للقيم الفكرية والروحية كما يتعلم الطفل إنكار الذات والتغلب على نزواته وعلى دوافع اللذة والمتعة الحسية وتمثيل الأهداف الراقية التى يعينها الواقع فى صوره الأخلاقية والاجتماعية والروحية .

وتمتاز حركة الجيش المصرى بطابع خاص قلما نجد ما يماثله فى الحركات التى توصف بالثورة أو بالإصلاح إذ أنها جمعت فى حركة واحدة وفى آن واحد بين وظيفتى الكفاح وهما مقاومة عوامل الفساد والانحلال والموت ثم وظيفة البناء والخلق . وذلك لأنها استلهمت القوانين التى تهيمن على كل تطور سوى للكائن الحى وهى القوانين التى تبرز ما يتصف به الكائن الحى فى نموه من وحدة وتكامل بين مختلف وظائفه . وإن كان تحقيق التكامل الاجتماعى أعسر تحقيقاً من التكامل النفسى فإنه هو الخطة الوحيدة التى يجب أن يسير عليها المصلح الاجتماعى .

وتعريف عملية التكامل كفيل وحده بأن يرسم لنا خطة الإصلاح . وليسمح لى القارىء بأن أذكر هنا ما سبق أن نشرته فى عدد فبراير ١٩٤٧ من هذه المجلة صفحة

٤٢٨ : ينطبق معنى التكامل على كل « نظام يقوم على تنسيق مقومات جزئية أو على تآزر أعضاء لتأدية مجموعة من الأفعال ترمى إلى حفظ هذا النظام وتنميته وفقاً لنموذج معين . فمعنى التكامل يتضمن معان مختلفة منها الأجزاء ثم الصلة بين الأجزاء ثم الصلة المنظمة بين الأجزاء ثم التنظيم الديناميكى وأخيراً تأدية وظائف وفقاً لنموذج معين . وأعتقد أن النقطة الأخيرة (وهى تأدية وظائف وتحقيق غرض) هى النقطة الأساسية التى تميز التكامل عن سواه من أنواع التنظيم . »

* * *

أعلنت الأمة عزيمتها على تنظيم العمل وزيادة الإنتاج ، ويقتضى هذا البرنامج الذى يرمى إلى استغلال الثروة القوّمية تعبئة جميع القوى والجهود ، وأول مقوم للثروة القومية هو العمل ، عمل المزارع والصانع والتاجر الذين ينتجون ، وعمل العلماء والفنيين على اختلاف فروع تخصصهم وهم الذين ينظمون العمل والإنتاج .

ويجب أن يشمل التنظيم المجموعة الموحّدة التى تكون نواة العملية الإنتاجية وتتكون هذه المجموعة من العامل وآلته والمادة الخام التى يعالجها . ومن وظيفة المهندس القيام بتنظيم هذه المجموعة الثلاثية . وقد تركزت العناية فى بادىء الأمر فى دراسة الآلة والمادة وجاء العامل فى المرتبة الأخيرة ولم ينظر إليه إلا بوصفه آلة تقوم فيها العضلات بوظيفة المحرك وأهمل الجانب الاجتماعى إلى حد كبير والجانب النفسى إلى حدّ أكبر .

ثم فطن رجال الأعمال والصناعة إلى ضرورة العناية بالعوامل النفسية ومدى تأثيرها فى الإنتاج فنشأ علم تطبيقى جديد هو الهندسة البشرية وأنشئت المعاهد الخاصة لتخريج مهندسين بشريين يركزون اهتمامهم فى دراسة تكييف العامل لمهنته وتكييف المهنة للعامل مع مراعاة الشروط الاجتماعية التى تحيط بالعمل والعمال .

والهندسة البشرية human engineering تسمية جديدة لعلم النفس التطبيقى Psychotechnique وميزة هذه التسمية أنها تشير إلى ضرورة التنسيق بين مختلف العلوم التى تتناول طبيعة الإنسان وقوانين نشاطه فى مختلف الميادين التى يشترك فيها . فالهندسة البشرية تعتمد على علم النفس التجريبى والفسيولوجى ، وعلم النفس الديناميكى الذى يهتم خاصة بدراسة دوافع السلوك وعلم النفس الاجتماعى وسيكولوجية الفوارق الفردية وعلم النفس المرضى والإكلينيكى وبعض الدراسات الاجتماعية الخاصة بشئون العمال ، والتشريعات العمالية ودراسات أخرى خاصة بتركيب

الآلات الميكانيكية وتنظيم المصانع وإحصاء الاختصاصات المهنية من مدنية وعسكرية وتحليل العمل والحركات التى يتطلبها أداؤه .

وقد اتسع نطاق الهندسة البشرية فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى الأمم الأوروبية الكبرى، فأنشئت فيها المعامل السيكولوجية التطبيقية ومعاهد التوجية والاختيار المهنى والعيادات السيكولوجية فى المدارس والمصانع والمستشفيات . ولم يقتصر التطبيق السيكولوجى على المدارس والمصانع بل شمل أيضاً المؤسسات التجارية والوظائف الكتابية والمهن الحرة والإذاعة والدعاية وسائر وسائل رفع الروح المعنوية فى السلم والحرب . فأصبح علم النفس بفرعيه النظرى والتطبيقى يدرس فى كليات الطب والتجارة والهندسة والحقوق . ولكى نكوّن فكرة سريعة عن مدى انتشار التطبيقات السيكولوجية يكفينا الآن أن نلقى نظرة سريعة على أعمال المؤتمر الدولى التاسع لعلم النفس التطبيقى الذى عقد فى سبتمبر ١٩٤٩ فى برن عاصمة سويسرا واشترك فيه ممثلو ١٩ دولة وألقيت فيه مائة وثلاثون بحثاً تناولت الموضوعات الآتية :

١ ــ دور علم النفس التطبيقى فى الحياة الاجتماعية والسياسية
٢ ــ دراسة الشخصية بواسطة الاختبارات
٣ ــ الاختبارات وميادين تطبيقها
٤ ــ التدريب المهنى
٥ ــ سيكولوجية العمل الإنسانى من الوجهة الاجتماعية والفنية
٦ ــ قيمة التطبيقات السيكولوجية
٧ ــ التوجيه المهنى
٨ ــ التحليل الرياضى للعوامل المهنية
٩ ــ اختيار الطيارين
١٠ ــ التطبيقات السيكولوجية فى المدارس والجامعات
١١ ــ علم النفس التطبيقى ووسائل التعليم السمعية والبصرية
١٢ ــ سيكولوجية ذوى العاهات

ومما يسترعى النظر هو تضافر جهد الأطباء وعلماء النفس والاجتماع فى معالجة مختلف المشاكل التى تتضمنها دائرة العمل والمهنة وفى البحث عن أنجع الوسائل لتحقيق توازن الشخصية وزيادة فاعليتها ولتنظيم النشاط الاجتماعى فى جو من التفاهم والتضامن .

* * *

ويجدر بنا أن نسترشد بما حققته الهندسة البشرية فى الدول الغربية لوضع المعالم الأولى لبرنامج شامل للتطبيقات السيكولوجية فى مصر .

ولا بد فى بادىء الأمر أن نذكر بعض الحقائق الأولية التى ستوجهنا فى تحديد مجال هذه التطبيقات وتعيين شروط نجاحها . وذلك فى النقط الأربع الآتية :

١ — لا يختلف مجال علم النفس التطبيقى عن مجال النشاط الإنسانى ، سواء اتخذ هذا النشاط صورة النمو أو اللعب أو التعلم أو العمل والإنتاج أو علاقة الأفراد بعضهم ببعض والتأثير المتبادل بينهم أو بين الجماعات التى ينتمون إليها . وعلى ذلك يتكون مجال التطبيقات السيكولوجية من الأسرة والمدرسة والجيش ومحل العمل من حقل أو متجر أو مصنع أو مكتب أو دار للإذاعة أو الصحافة أو النشر ؛ والعيادات والمستشفيات والملاجىء والمحاكم والإصلاحيات والسجون والأندية والشارع ، أى كل مجال لنشاط الإنسان منذ ولادته[1] .

٢ — بينما كانت المناقشات تدور بين مدارس علم النفس المختلفة أخذ بعض علماء النفس منذ أوائل هذا القرن يعملون فى الميدان العملى بوضع الاختبارات لقياس القدرات العامة والخاصة مؤمنين بأن أحسن وسيلة لمعرفة مدى صلاحية آلة من الآلات الخاصة هو الشروع فى استخدامها للكشف عن عيوبها وإدخال التحسينات عليها . والنتائج الباهرة التى وصل إليها علم النفس التطبيقى اليوم تؤيد هذا التفاؤل الجميل الذى كان يقوى عزيمة مؤسسى هذا العلم أمثال بينيه ولاهى وبيرون فى فرنسا

---

(١) راجع بهذا الصدد الكتب الآتية :

J. Stanley Gray & others: Psychology in Use. American Book Company, New York, 1941, Pp. 663.

—: Psychology in Human Affairs. McGraw Hill, New York, 1946, Pp. 646.

J.P. Guilford & others: Fields of Psychology, Basic and Applied. 2ed. Van Nostrand Cy, New York, 1950. Pp. 779.

La Psychotechnique dans le Monde Moderne. Compte rendu du IXe. Congrès Intern. de Psychotechnique, Berne, 12-17 Septembre 1949 Presses Universitaires de France-Paris, 1952. Pp. 630.

W.C. Varnum: Psychology in Everyday life: 2d. ed. McGraw Hill, New York, 1942. Pp. 490.

وبيزولى وجملى فى إيطاليا وشترن وليمان ومونستربرج فى ألمانيا وديكرولى فى بلجيكا وكلاباريد وبوفيه فى سويسرا ومايرز واسبيرمان فى إنجلترا وميرا فى أسبانيا وروسوليمو فى روسيا وجلبرث وترمان وودورث وثرستون فى أمريكا .

وهذا التضافر الدولى فى تنمية علم النفس التطبيقى وخاصة طرق التوجيه والاختيار المهنى أكبر دليل على حيوية هذا العلم وأقوى كفيل بتقدمه ونجاحه . فقد أنشىء فى بلجيكا فى عام ١٩٠٨ أول مكتب للتوجيه المهنى بإشراف الطبيب المربى ديكرولى وفى عام ١٩١٨ أنشأ كلاباريد فى جنيف أول معهد للبحوث السيكولوجية التطبيقية وانعقد فى جنيف عام ١٩٢٠ أول مؤتمر دولى لعلم النفس التطبيقى .

ثم توالت المؤتمرات حتى المؤتمر الدولى التاسع الذى انعقد فى برن عاصمة سويسرا سنة ١٩٤٩ والذى سبقت الإشارة إلى البحوث التى ألقيت فيه .

فقد أصبح من عبث القول التساؤل عن قيمة الاختبارات والتطبيقات السيكولوجية فهى الآن جديرة بكل ثقتنا ومواصلة استخدامها كفيل بتنميتها وتحسينها. فما علينا فى مصر إلا أن نستأنف العمل الذى بدأه الأستاذ إسماعيل القبانى وزملاؤه فى معهد التربية وأن نتوسع فى وضع الاختبارات على مختلف أنواعها بحيث تلائم البيئة المصرية وتساعدنا على مواجهة المشكلات الخاصة بمجتمعنا .

ويسرنا أن نذكر هنا أن إدارة الجيش المصرى وهى حريصة كل الحرص على الأخذ بجميع وسائل النهضة العسكرية أنشأت منذ شهرين قسم الخدمة السيكولوجية العسكرية وقد بدأ هذا القسم عمله بتطبيق بعض اختبارات الذكاء والشخصية على طلبة الكلية الحربية المستجدين وهو يشرع الآن فى تأسيس المعمل لاختيار السواقين والطيارين ورجال سلاح المدفعية والإشارة إلخ . .

٣ — غير أنه يجب الإشارة إلى أن حركة التطبيقات السيكولوجية فى مصر لا تزال فى المهد . ولكى تنشط وتنمو لا بد من أمرين أساسيين الأول إنشاء معهد خاص للتطبيقات السيكولوجية لتخريج مهندسين بشريين فالبلاد فى حاجة إلى مئات من السيكولوجيين العمليين يجمعون بين الثقافة السيكولوجية والاجتماعية والفنية أما الأمر الثانى فهو ضرورة القيام بدراسة اجتماعية إحصائية منظمة لجميع أوجه النشاط فى البلاد ، ويجب أن تكون هذه الدراسة حرة جريئة مخلصة ، خاصة عند ما تتناول مختلف المهن والطبقات والتيارات الفكرية والاتجاهات العاطفية التى تتفاعل وتتصارع داخل المجتمعات الفرعية التى تكوّن المجتمع المصرى بأكمله . ولتحقيق هذه

الخطوة الأساسية يجب تخريج بحاثة اجتماعيين تدربوا على البحث الاجتماعى خارج جدران المعاهد والجامعات ، بل فى القرى والمصانع والشوارع حيث تتجسم الحقائق النفسية والاجتماعية ، وتنشأ العلاقات الإنسانية التى تزيد الباحث العلمى استبصاراً وتغذى تفكيره بمادة واقعية حية . فقد سئمت البلاد الكلام ثم الكلام حول المناهج والنظريات ؛ فالمنهج لا يمكن أن يصقل إلا بالشروع بتنفيذه أما النظرية فيجب أن تتطور وأن تتجدد وأن تكون دائماً وليدة الملاحظات والتجارب والاصطدام بالواقع المتعدد الوجوه المتشابك العوامل .

وحبذا لو أنشىء بجانب معهد التطبيقات السيكولوجية معهد آخر لدراسة الرأى العام على أسس علمية إحصائية وكدت أقول عضلية إذ لا بد هنا كما فى سائر البحوث الاجتماعية نزول الطالب والباحث والعالم إلى الميادين الخارجية والإقامة فى الأجواء الاجتماعية المختلفة والاختلاط بالأشخاص لمشاركتهم أفزاعهم وآمالهم وسائر حركاتهم النفسية .

٤ — وما سبق يمهد لنا التحدث عن النقطة الرابعة والأخيرة .

هاجمنا فى الفقرة السابقة الإسراف فى المناقشات النظرية ودعونا إلى العمل . غير أن العمل الإنسانى الحق ، العمل الذى يرضى بطريقة منظمة منسجمة جميع حاجات الانسان ونزعاته النفسية حتى الروحية منها ، يجب أن يكون عملا موجهاً يرمى إلى غاية يتفق الجميع على أنها أسمى الغايات للمجتمع الإنسانى ، ويستند إلى نظرة فكرية شاملة إلى الإنسان وإلى الكون ، إلى الإنسان فى طبيعته ومصيره .

وهناك نظريتان متطرفتان وبالتالى خاطئتان ، لتفسير صلة الأفراد بالمجتمع . النظرية التى تقول بأن المجتمع هو الذى يكون الفرد تكويناً كليًّا . ويمنحه كل ما يعين إنسانيته وهى نظرية دوركهيم المستلهمة من بعض فلاسفة الألمان والتى تطبقها الأنظمة السياسية الدكتاتورية . والنظرية التى تفسر المجتمع على أساس علم النفس الفردى وتذهب إلى أن الفرد هو الذى يشكل المجتمع لا العكس ، ومثل هذه النظرية إذا طبقت لا بد وأن تؤدى إلى الفوضى . الواقع إن المجتمعات والأفراد تكوّن وحدة معقدة التركيب تتبادل فيها التأثيرات بحيث تؤدى إلى ازدهار شخصية الأفراد وضمان حرياتهم داخل نظام قائم على الإخاء والمحبة .

وفى وسع علم النفس التطبيقى أن يساهم مع غيره من العلوم فى تحقيق هذه الغاية . فليس غرضه خدمة فئة على حساب فئة أخرى وتحويل الإنسانية إلى نظام آلى

لأكبر إنتاج ممكن على حساب القيم الروحية ، بل غرضه تحقيق العدالة الاجتماعية وسعادة الأفراد والمجتمعات وجعل الشخصية محور النشاط مهما كان هذا النشاط متواضعاً . فالمهندس البشرى الشاعر بقدسية رسالته يعمل دائماً وهو مدفوع باحترامه العميق نحو الشخصية الإنسانية التى تتميز بالفكر والحرية والقيم الروحية السامية التى تتوق الإنسانية الجاهدة نحو تحقيقها بإيمان وإخلاص .

يوسف مراد